نقد مفهوم الثقافة في الفكر المابعد حداثي عند ألان فينكلكروت

أ. كرام ياسين
جامعة سطيف 2

الملخص:

يعالج هذا المقال موقف ألان فينكلكروت من وضع الثقافة في الفكر المابعد حداثي الذي أصبح حسب وصفه كارثيا. فبعدما كانت الثقافة في عصر الحداثة مرتبطة بالفكر وتشير إلى ما يجمع البشر ويوحدهم أصبحت في مابعد الحداثة تشير إلى كل ما يميز الأفراد والأمم ويجعلهم مختلفين من عادات وتقاليد ومعتقدات... وبهذا التصور فإن الثقافة بالمفهوم الكلاسيكي الحداثي تعني كل ما يساهم في العالمية والكونية أما بالمفهوم المابعد حداثي تعني كل ما يعبر عن الفردانية والخصوصية. هذا التحول من الثقافة إلى الثقافات نقلنا من الدفاع عن وحدة القيم والمعايير إلى الدفاع عن حقها في التعدد والاختلاف. ويقرأ فينكلكروت هذا الانتقال على أنه قد خلق أزمة ثقافية ويُعبر عن هزيمة فكرية لمرحلة مابعد حداثة.

مقدمة:

إن التاريخ يكشف لنا أن الإنسانية، في مسارها التقدمي، عرفت عدة أزمات تختلف من حيث النوع و من حيث الحدة و التأثير. فهناك أزمات اقتصادية وأخرى سياسية و أخرى اجتماعية وأخرى صحية و أخرى ثقافية... إلخ إلا أنه وفي غالب الأحيان نجد أن هناك اختلافا كبيرا في طريقة التعامل والتعاطي مع هذه الأزمات، فهناك أزمات يتم إدراكها واستعابها بسرعة، وسريعا تتكاثف الجهود وتتحد من أجل حلها كما هو الشأن في الأزمات الاقتصادية والصحية مثلا. لكن

وفي المقابل نجد أن هناك بعض الأزمات لا نهتم بها سريعا كما نهتم بغيرها بل حتى أننا لا ندركها ولا نستوعبها إلا بعد مرور عدة سنوات من تشكلها، وهذا الكلام يصدق بالتحديد على الأزمة التي تصيب الثقافة. وهذه الأزمة كما قلنا لا ندرك خطورتها بل حتى أننا لا نستوعبها ولا نهتم بها إلا بعد مرور عدت عدة سنوات عليها. والغريب في الأمر أن هذا النوع من الأزمات أي تلك التي تصيب الثقافة هي من أخطر الأزمات وأعقدها[1].

إن العالم المعاصر اليوم أو بالأحرى الفكر المعاصر واقع في أزمة كبيرة جدا هي أزمة الثقافة، أزمة غياب المعايير التي يمكن العودة إليها جميعا في حالات الاختلاف التي يمكن أن تنشأ بينا، حيث أصبح كل واحد اليوم له الحق في التعصب للثقافة التي ينتمي إليها وفي الدفاع عن المعايير التي يستند إليها وتبني القيم التي يرغب فيها. وهذا الوضع الذي تعيشه الثقافة اليوم يُدخل الإنسانية في فوضى المعايير والقيم.[2]

إن حق الاختلاف الثقافي الذي تدافع عنه الفلسفات المعاصرة على أنه حق من حقوق الشعوب والأمم، وأن الأفراد لهم الحق في التصرف وفقا لعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم بل أكثر من ذلك ينبغي علينا أن نحترم هذا الاختلاف، فإن ذلك يخلق فوضى لا تنتهي ولا يمكن السيطرة عليها، لأن هذا التأكيد على حق الاختلاف الثقافي يضرب في الصميم فكرة عالمية القيم والمعايير التي يمكن تطبيقها على جميع أفراد الإنسانية لأن هذه الفكرة تستمد شرعيتها من وحدة الجنس البشري. وكنتيجة حتمية لفكرة حق الاختلاف الثقافي تصبح أية محاولة لتطبيق معايير عالمية على كل الأفراد أو الدفاع عن حقوق الإنسان وإرساء الديمقراطية في الدول الاستبدادية تصبح - وهذا كما قلنا كنتيجة حتمية لحق الاختلاف الثقافي- امبريالية ثقافية تهدد حقهم في الاختلاف، وحقهم في العيش وفقا لمعاييرهم وقيمهم.

[1]- Marc Chabot, « *Alain Finkielkraut : penser n'est pas un luxe »,* Nuit blanche, magazine littéraire, n°29, 1987, p. 70-71. P. 70.

[2]- Ibidem.

ومن بين الفلاسفة الذين ينتقدون الوضع الذي آل إليه الفكر المعاصر نجد الفيلسوف الفرنسي **آلان فينكلكروت Alain Finkielkraut (1949- ؟)** الذي يرى أن العالم المعاصر واقع في أزمة كبيرة هي أزمة الثقافة، ويدعو إلى إعادة التفكير في الوضع الراهن للفلسفة وإلى مساءلة جدية لما آل إليه العالم المعاصر.لأن حسب فينكلكروت، الاعتراف بحق الاختلاف الثقافي بالطريقة التي هو عليها اليوم هو نوع من أنواع اللامبالاة لما يحدث في العالم وبالتحديد لما يحدث في الثقافات الأخرى.

ويرى آلان فينكلكروت أن التصدي لهذا الفكر الذي يعطي الشرعية لحق الاختلاف الثقافي والدفاع عنه بالطريقة التي تهدد أو تلغي فكرة عالمية القيم والمعايير ووحدة الجنس البشري- التي تؤمن أن هناك عمقا وأفقا يشترك فيه كل أفراد البشرية- هي ضرورة ملحة بل هو واجب أخلاقي وحضاري تجاه النوع البشري. لأن التصدي لذلك هو تصدٍ ومنع لإخفاق الفكر وانهزامه (الفكر المعاصر) وانتصار للثقافة بالمعنى الفكري. وقبل أن نخوض بشكل أعمق في فكر آلان فينكلكروت نرى أنه من المنطقي جدا أن نطرح بعض الأسئلة التي ستوجه هذا المقال على شاكلة: لماذا ينتقد ألان فينكلكروت توجه الفكر المعاصر إلى الاعتراف بحق الاختلاف الثقافي؟ألا يمكن اعتبار موقف فينكلكروت الرافض لحق الاختلاف الثقافي تعبيرا عن امبريالية متطرفة قاصية في أحكامها على الثقافات المختلفة؟ أم هو موقف يكشف عن قلق حقيقي لمفكر يؤرقه مصير الإنسانية؟ ماهو البديل الذي يقترحه كحل لإنقاذ الفكر المعاصر من الإخفاق و الانهزام؟.

من الثقافة إلى الثقافات:

يرى فينكلكروت أن مفهوم الثقافة بعد القرن الثامن عشر ق(18) عرف تحولا كبيرا من حيث الدلالة والصيغة فبعدما كنا نتكلم عن **الثقافة** Culture بصيغة المفرد أصبحنا نتكلم عن **الثقافات cultures**بصيغة الجمع هذا من جهة، ومن جهة أخرى يعتبر أن الثقافة بالمفهوم الكلاسيكي كانت تشير إلى ما يشترك فيه البشر، بمعنى أن الثقافة بالمفهوم الكلاسيكي لا تعني مجموع العادات والتقاليد الممارسة من قبل الأفراد والجماعات بل تعني مجموع الفعاليات الفكرية التي

ينتجها العقل المشترك والتي يستطيع الولوج إليها كل الأفراد والتماهي معها.لكن،وبعد القرن الثامن عشر(18)، وبالتحديد مع بدايات الرومانسية الألمانية، أصبحت الثقافة تعني كل ما يجعلها تتميز عن الثقافات الأخرى، أي تعني كل ما يشكل خصوصيتها ويجعلها تتميز عن قريناتها مثل اللغات والعادات والتقاليد والمعتقدات.[3]

وقد عبر فينكلكروت في كتابه " **إخفاق(أو انهزام) الفكر**" *la défaite de la pensée*عن قلقه الكبير إزاء المفهوم الذي أصبح واسعا للثقافة حيث غدا كل شيء ثقافي بدءا من أبسط السلوكات والحركات إلى أعلى وأرقى ما ينتجه العقل من أفكار. والحداثة هي مرحلة كانت تنظر إلى الثقافة على أنها من إنتاج الفكر أما اليوم فلم يعد ذلك ولم نعد نقول الثقافة بصيغة المفرد بل بصيغة الجمع.[4] فلقد كانت الثقافة في زمن قريب تعني ما يوّحد البشر أما اليوم أصبحت تشير إلى ما يفرقهم ويجعلهم مختلفين، أصبحت تعني خصائص كل أمة كل عرق. وبهذا التحول ضاعت مهمة الثقافة التي كانت تدعو إلى العالمية و الكونية لتصبح دعوة إلى المحلية والقومية.

والحديث عن الثقافة بالمعنى الحديث هو من أجل الإشارة إلى ميدان العقل الذي يعد الوسط الذي يشترك فيه البشر وهذا المفهوم يعلي من قيمة الإنسان ومن قدرته على تجاوز الاختلافات التي يعيش فيها من أجل معانقة الأفق. فالفرد في العصر الحديث يسعى إلى تفعيل فكره وممارسة النقد، إنه فرد يسعى إلى الانفتاح والتحرر من معتقدات المجتمع التي تقيده، وهذا يعني أنه يزدري الثقافة التي تعني مجموع العادات والتقاليد والمعتقدات لأن هذه الثقافة تلغي وتقصي العقل وتجعله في الهامش أما الثقافة بالمعنى الفكري فهي تساهم في انفتاحه على بني جنسه.[5]

[3]- Alain Finkielkraut, la défaite de la pensée, Gallimard, 1987, p. 9.
[4]- Ibid., P. 9.
[5]- Vincot Citot, « *le processus de la modernité et la possibilité de liberté* », le philosophoire, 2005, N°.25, PP. 35.76. P. 37.

الفرد الذي تبشر به الحداثة هو فرد يرفض أن يكون وجوده وقيمه ومعاييره محددة من مصادر خارجية، إنه لا يقبل شيئا ما على أنه حقيقي ما لم يتأكد بنفسه على أنه كذلك، بل إنه يؤمن بأنه يستطيع تأسيس معاييره وقيمه بنفسه دون الاعتماد على مصادر أخرى مثل الدين أو العادات أو التقاليد.[6]

ومنه فإن منبع قيم ومعايير الإنسان الذي تدعو إليه الحداثة هو العقل والعقل وحده. وعلى الرغم من أن الحداثة بدعوتها إلى استقلالية الذات والتحرر من كل الوصايات الخارجة عنها توحي لنا أنها تدعو إلى فردانية تلغي فكرة العالمية، إلا أنه في الحقيقة هي فردانية منفتحة ومتفتحة ومفتوحة على العالمية فعلى الرغم من أن الانطلاقة من الذات إلا أن داخل هذه الذات توجد العالمية، توجد الإنسانية، لأن الفردانية التي لا تنفتح على العالمية هي انغلاق على الذات والعالمية دون فردانية هي إلغاء للفرد البشري ولحريته.[7] فطريق بلوغ الفرد لهذه العالمية تكون انطلاقا من ذاته، من عقله،لأن معايير العقل وقيمه هي عالمية ومحايثة لكل فرد وعليه فإن الحداثة ترى أن ما يجعل الإنسان إنسانا هي قدرته على التعالي على الأوضاع والظروف المحيطة به، بمعنى قدرته على التخلي عن القيم و المعايير التي تقدمها له ثقافته ويسير فقط وفق معايير العقل وقوانينه.[8]

هذا المشروع الحداثي الذي كان يدعوا إليه فلاسفة التنوير من تحرر واستقلالية وفردانية وعالمية لم يعد من اهتمامات الفكر المعاصر وبالخصوص الفكر المابعد حداثي وقد عبر فينكلكروت عن قلقه وتشاؤمه إزاء هذا الوضع الذي آل إليه الفكر المعاصر، وهذا نستشفه من عناوين كتبه حتى قبل أن نقرأها. مثل: la défaite de Goethe la défaire de la pensée. L'ingratitude. le mi contemporain. L'identité malheureuse. . فالحداثة هي مرحلة كانت تنظر إلى الثقافة على أنها من إنتاج الفكر أما اليوم فأصبح كل شيء ثقافي، الحداثة مرحلة قطعت صلتها بالدين أما اليوم، يقول فينكلكروت، جعلناه جزءا لا يتجزأ من

[6]- Ibid. P. 39.
[7]- Ibid. P. 38.
[8]- Ibid. p. 41.

الثقافة. الحداثة كانت ترى أن القيم والمعايير يجب أن يكون مصدرها العقل أما اليوم فتعددت المصادر واختلفت فالدين أصبح مصدرا لها وحتى العادات والتقاليد والمعتقدات. وبهذا الشكل يرى فينكلكروت أننا ابتعدنا عن مبادئ الحداثة، بل لم تعد مشروعا نطمح تحقيقه.[9] وهذا الوضع قضى على فكرة القيم والمعايير العالمية وحل محلها فكرة نسبية القيم والمعايير. ولم نعد ندافع عن ما يوحد البشر بل ندافع على ما يجعلهم مختلفين.

وكنتيجة لابتعاد الفكر المعاصر عن المشروع الحداثي وعن مبادئه وقع العالم المعاصر في فيما يسميه فينكلكروت ب:**أزمة الثقافة**.والتي يعني بها أزمة غياب المعايير التي يمكن أن نعود إليها كلنا كبشر،أزمة غياب قيم عالمية توحدنا،أزمة غياب مرجعية واحدة تحتكم إليها كل الشعوب...إنها أزمة تهدد المبادئ العالمية للحياة الأخلاقية والليبرالية.وهذا الوضع الذي آل إليه العالم المعاصر يعبر عن إخفاق الفكر وانتكاسه.

أخفق الفكر المعاصر،حسب فينكلكروت،لأنه حاد عن مبادئ الحداثة وفلاسفة التنوير الداعية إلى العالمية. أخفق لأنه لم يعد يتكلم عن الثقافة بصيغة المفرد بل بصيغة الجمع، أخفق لأن مفهوم الثقافة لم يعد مرتبط بالفكر بل بأنماط العيش والسلوك. وهذا التحول ولّد أزمة في القيم والمعايير لأنه في عصر التنوير كان مصدرها واحد هو العقل أما اليوم فأصبح مصدرها الثقافات المختلفة، بمعنى مصدرها الدّين والعادات والتقاليد والمعتقدات أو بالأحرى كل مكونات الثقافة. ولما كانت هذه العادات والتقاليد والمعتقدات مختلفة من أمة إلى أخرى ومن شعب إلى آخر فإنه بالضرورة تكون المعايير والقيم مختلفة تبعا لاختلاف الثقافات.

[9]- Entretien avec Finkielkraut, *On lit pour avoir un cœur intelligent* Propos recueillis par François Bousquet P. 2.

بهذا الشكل يتبين لنا أن الفكر المابعد حداثي أعاد النظر في مبادئ الحداثة مثل القيم والعالمية والفردانية والعقل، واستقلالية الأفراد.وأصبح يدعو إلى نسبية المعايير والقيم ودحض فكرة العالمية وإعادة الاعتبار لبعض الوصيات التي أدينت بشدة من قبل فلاسفة التنوير، بل أكثر من ذلك دعا إلى الاعتراف بها واحترامها.

يرى فينكلكروت أن أول من تسبب في هذه القطيعة مع الحداثة ومشروعها هم الرومانسيون الألمان وعلى رأسهم **يوهان غوتفريغ هردر(1744-1803)**.فهذا الأخير هو مصدر الانتقال من الثقافة إلى الثقافات، وبهذا الانتقال أحدث هردر قطيعة مع علمنة الفكر[10]، قطيعة مع الفكر الميتافيزيقي الأوروبي عموما حين قال أن الإنسان لا يمتلك ماهية مسبقة بل ماهيته مكتسبة ويكتسبها انطلاقا من المجتمع والمحيط الذي يعيش فيه.[11]

هردر ضد فلاسفة التنوير:

إن هردر ينفي وجود قيم ومعايير عالمية مجردة يصلح تطبيقها على كل الأفراد بل هناك معايير وقيم محايثة لكل أمة ولكل مجتمع ولا يمكن بأي حال من الأحول فصل هذه القيم عن سياقها ومحيطها الذي انبثقت فيه.وهذا يعني أنه لا توجد معايير مطلقة بل ما هو موجود هو فقط هي معايير وقيم محلية تتصف بالنسبية.

والكتاب الرئيسي الذي عبّر فيه هردر عن أفكاره هو بعنوان: **فلسفة أخرى للتاريخ** الذي ألفه عام 1774م.والمهمة التي سطرها لهذا الكتاب تتمثل في:الدفاع عن حق الاختلاف الثقافي ورد الاعتبار لكل المراحل التاريخية التي مرت بها الإنسانية ضد هالة التكبر التي أصيب بها فلاسفة التنوير الذين كانوا ينظرون إلى عصرهم على أنه أفضل العصور وثقافتهم أفضل الثقافات وأرقاها.

فعصر التنوير كان يروج لفكرة مفادها أن التاريخ يمكن دراسته دراسة عقلية والحكم عليه وفقا لمعايير مطلقة تُستمد من العقل، أي أنهم يخضعون الأحداث التاريخية للتجريدات العقلية و التأملات الميتافيزيقية. إلا أن هذه

[10] - Alain Finkielkraut, *la défaite de la pensée*, op. Cit., 14.15.
[11] - Charles Larmore, *modernité et morale*, presses universitaires de France, 1993, P. 232.

الطريقة، في نظر هردر، في فهم التاريخ تحول دون إقامة فلسفة حقيقية للتاريخ لأن دراسة التاريخ دراسة عقلية تسيء إلى مكونات الإنسانية وتسيء إلى خصائص الأمم والشعوب وتحول دون الفهم الحقيقي لهم.[12]

ففلاسفة التنوير يريدون أن يفرضوا على العالم نمطا واحدا للعيش ونمطا واحدا للتفكير، وهذا النمط يستمد معاييره من العقل، في حين يري هردر أنه لكل أمة قيمها ومعاييرها الخاصة بها ومنه نمط عيش خاص بها وأي محاولة لفرض نظام شمولي كوسمبوليتاني تخضع له كل الشعوب والأمم هو إيذان بتحطيم الثقافات بكل ما تحتويه من خصوصيات.وقد عبر هردر عن ذلك بطريقة تهكمية ناقدا المشروع التنويري الداعي إلى العالمية قائلا:":« طبائع و نمط حياة! أية حقبة يمكن أن تكون مأساوية مازالت تعيش فيها خصائص أمم:أية كراهية متبادلة، أي حقد للأجانب،أي استغراق في التفكير أية أحكام قديمة مسبقة،أي تعلق بالأرض التي ولدنا فيها وفيها سنتلاشى! طرق تفكير محلية! حيز أفكار ضيق- بربرية لا تنتهي! أما عندنا، فحمدا للرب!كل خصائص الأمم تم القضاء عليها!نحن متحابون كلنا، حتى أن الواحد فينا ليس بحاجة لأن يحب الآخرين؛ نحن نتردد على بعضنا، وكلنا متساوون فيما بيننا_ فنحن متأدبون ومتحضرون وسعداء! صحيح أننا لا نملك وطنا، ولا نملك ما يتيح لنا أن نسميه "أهلنا" الذين نحيا لأجلهم، ولكن نحن أصدقاء الإنسانية ومواطنون عالميون(...) هنيئا لنا إذن! فالعصر الذهبي قد يبدأ من جديد،" العالم كله يملك لغة واحدة والكلمات نفسها"! "لن يكون هناك سوى قطيع واحد وراع واحد"! يا خصائص الأمم، ماذا حل بكم؟».[13]

لقد دعا فلاسفة التنوير إلى بناء دولة عالمية تجمع كل أفراد النوع البشري. وقالوا أن تصميم هذه الدولة يجب أن يكون وفقا لمعايير العقل، لأنها المعايير

[12]– كرام ياسين، فلسفة التاريخ عند هردر: نحو نقد العقلانية التنويرية، مذكرة ماجستير إشراف الدكتور: وارث أحمد جامعة الجزائر 2، 2014.2015. ص53.

[13]- Herder, J. G., *une autre philosophie de l'histoire*, Trad. De l'allemand par : Max Rouché, Paris, Aubier, PP. 281.283.

الوحيدة التي يشترك فيها البشر والتي بإمكانها أن تجمعهم رغم اختلافهم. وهذا المشروع التنويري الطامح إلى توحيد البشر قد يبدو من الناحية النظرية جميلا ورائعا ونبيلا إلا انه من الناحية الواقعية هو غير ذلك. فالعقل التنويري هو عقل مجرد، عقل متعالي نظرته إلى الأشياء نظرة فوقية وعامة. فصحيح أن المشروع التنوير الطامح إلى توحيد البشر هو مشروع نبيل وجميل لكن آليات بلوغ ذلك تجعل هذا المشروع يبدو قبيحا.لأنه يستمد أفكاره من العقل المتعالي وهذا العقل لا يكترث بما يفرق البشر،لا يكترث بخصائص الشعوب والأمم، ما يهمه هو النوع البشري لا ثقافاته المختلفة، ما يهمه هو ما يوحد البشر لا ما يجعلهم مختلفين. لهذا اعترض هردر على هذا المشروع التنويري الذي رأى فيه خطرا على الإنسانية وتهديد لها ولمكوناتها.

حاول هردر،في مقابل ما كان يدعوا إليه فلاسفة التنوير، إلى أن يُبيّن أن مكونات الإنسانية من أمم وشعوب وجماعات هي مختلفة فيما بينها ومن المستحيل إلغاء الفروقات التي تميزها.ودعا إلى استبدال العقل المجرد المتعالي التنويري بالعقل الواقعي التاريخي.هذا العقل الهردري هو عقل يحترم الاختلاف الثقافي ويحترم خصائص الشعوب والأمم.يحترم اختلافها الثقافي لأنه يعتبر أن لكل ثقافة لها معاييرها وقيمها الخاصة بها.وهذا لا يعني أن فلاسفة التنوير لايؤمنون أن لكل أمة لها معاييرها وقيمها الخاصة بها بل يعترفون بذلك ولكن يدعون الأفراد إلى تجاوزها والتعالي عنها والتشبث فقط بالمعايير والقيم العقلية. لأن هذه الأخيرة هي الوحيدة الكفيلة بجمع شمل الإنسانية وتوحيدها،أما المعايير المحلية فهي تفرق البشر وتجعلهم مختلفين.

إن الفكرة التي يدعوا إليها فلاسفة التنوير والمتمثلة في تخلي الشعوب والأمم عن معاييرهم المحلية من أجل معايير أخرى يزعمون أنها عالمية،هي فكرة لم تَرقْ فكر هردر إطلاقا واعتبر ذلك إساءة إلى الشعوب وثقافاتهم.لأن عصر التنوير هو عصر يؤمن بالعقل،هوعصر العقلانية بامتياز وأفكارهم مستمدة من روح العصر الذي ينتمون إليه.ومنه فإن المعايير والقيم التي يدعوا إليها فلاسفة التنوير

مستمدة من ثقافتهم التي ينتمون إليها.ولما كانت ثقافتهم تؤمن بالعقل فإن معاييرهم وقيمهم كانت انعكاسا لها.وما قام به هؤلاء الفلاسفة في نظر هردر هو أنهم دعو الشعوب الأخرى إلى التخلي عن ثقافاتهم وقيمهم وتبني الثقافة التنويرية التي تستمد قيمها من العقل.

ويذهب هردرإلى أكثر من ذلك، إلى اعتبار أن هذه القيم التي يدّعون أنها عالمية هي أيضا من نتاج الثقافة حالها كحال القيم الأخرى ولها سياقها التاريخي والفكري الذي وجدت فيه. [14]

إذن يتبين لنا أن هردر بتأكيده على حق الاختلاف الثقافي وإرجاع القيم إلى أصولها المحلية وإلى الثقافة التي انبثقت منها فإنه بذلك أسس لما يسمى **بالنسبية الثقافية** ومنه نسبية القيم في مقابل القيم المطلقة. ويستنتج فينكلكروت أن هردر يرى أنه لا يمكن فصل العقل عن التاريخ ولا يقبل فكرة فلاسفة التنوير القائلة أن التاريخ عقلي ويمكن دراسته دراسة عقلية بل يعتبر أن العقل هو دائما عقل تاريخي وأن لكل ثقافة عقلها المحايث لها. وما قام به فلاسفة التنوير حسب هردر هو أنهم حالوا تطبيق معايير ثقافتهم وعقلهم على الثقافات الأخرى في حين كان الأجدر عليهم أن يفهموا هذه الثقافات انطلاقا من معاييرها وعقولها هي لا من عقول ومعايير غيرها.[15] وبهذه الطريقة يرى فينكلكروت أن هردر قد سدد ضربة موجعة لفكرة المعايير العالمية التي كانت سائدة منذ أفلاطون إلى غاية فولتير[16]

بعد أن أشرنا إلى موقف كل من فلاسفة التنوير والتيار المعادي له(الرومانسية الألمانية بالخصوص منهم هردر) حول ما يجب أن تكون عليه الحداثة. ورأينا أن فلاسفة التنوير يدعون إلى وحدة الجنس البشري ووحدة المعايير والقيم أما الرومانسيون الألمان وعلى رأسهم هردر فكانت دعوتهم إلى تعدد القيم والثقافات وإلى احترام حق الاختلاف الثقافي. نشير الآن إلى موقف فلاسفة ما بعد من الحداثة من هذا الصراع الفكري الذي دار بين هردر وفلاسفة التنوير.

[14] - Alain Finkielkraut, *la défaite de la pensée*, Op. Cit., p .15.
[15] - Ibid. pp. 15.16.
[16] - Ibid. p. 18.

ما بعد الحداثة: انتصار لهردر وهزيمة للفكر:

لكن ما موقف فلاسفة ما بعد الحداثة من هذا الصراع الفكري الذي دار بين كلا الموقفين حول ما يجب أن تكون عليه الحداثة الحقيقية؟ يرى فينكلكروت أن الفكر المعاصر بتوجهه الفكري الحالي قد انتصر لهردر ضد فلاسفة التنوير، وهذا الانتصار لهردر خصوصا وللرومانسية عموما هو تعبير عن **إخفاق الفكر وانتكاسه**. والفكر المعاصر أخفق لأنه لم يعد يتشبث بالثقافة التي توّحد الجنس البشري وتدعو إلى وحدة المعايير والقيم، أخفق لأنه تخلى عن الثقافة التي تمجّد العقل وترى فيه المصدر الوحيد الكفيل لضمان حقوق الإنسان الطبيعية ليتشبث بالمقابل بالثقافة بمفهومها الهردري التي ترى لكل أمة معاييرها وقيمها الخاصة بها وأن لكل أمة عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها التي ينبغي احترامها.وهذا الاحترام لن يكون إلا باحترام القيم النابعة منها. وهذا التوجه الذي اختاره الفكر المعاصر لم يرق إطلاقا فكر فينكلكروت لأن ذلك أوقعنا في أزمة ثقافية كبيرة، أزمة غياب المعايير العالمية،لأنه إذا كان لكل أمة معاييرها وقيمها الخاصة بها وهي حرة في التصرف وفقا لها حتى وإن كانت تتعارض مع الحقوق الطبيعة للإنسان فإن ذلك يخلق فوضى في العالم.والأكثر من ذلك يرى فينكلكروت أن الفكر المعاصر يدافع وبشدة عن حق الاختلاف الثقافي أي يدافع عن نسبية القيم والمعايير فإن ذلك في الحقيقة تعبير عن اللامبالاة إزاء ما يحدث في الثقافات الأخرى.

والسؤال المهم الذي ينبغي طرحه هو:ماهو الشيء الذي يزعج بالتحديد فينكلكروت حين يدافع الفكر المابعد حداثي عن حق الاختلاف الثقافي وحين يعترف بنسبية القيم و المعايير؟والإجابة هي:أن فينكلكروت يرى أن عواقب وتبعات الاعتراف بحق الاختلاف الثقافي (بكل ما تعنيه كلمة الاعتراف) هي عواقب وخيمة وكارثية على العالم المعاصر،لأن التخلي عن فكرة أن الإنسان بمقدوره أن يتعالى عن أوضاعه التاريخية والفكرية والعقدية التي وجد ويوجد فيها فإن ذلك يعني أن فكرة أن هناك مبادئ سياسية وأخلاقية وحقوقية عالمية يشترك فيها كل أفراد الجنس البشري تصبح لا معنى لها وتصبح، تبعا لذلك،حقوق الإنسان مختلفة من

شعب لآخر وتفقد أي أساس قاعدي لها.وحسبه، أن نسبية القيم تلغي ضمنيا إمكانية وجود سلم قيمي يجمع البشر على اختلافهم لأن كل ثقافة لها قيمها الخاصة بها ونسقها الفكري الذي يبررها وتصبح حين ذلك كل محاولة لتأسيس معايير عالمية تُعتبر عند الآخر امبريالية ثقافية.[17]

من المؤكد أن الشعار الذي يحمله فينكلكروت هو الدافع عن حقوق الإنسان العالمية.ونحن نعلم أن فكرة حقوق الإنسان ذاتها تقوم على مسلمتين متناقضين في داخلهما:**الأولى**:وحدة الجنس البشري رغم اختلاف الشعوب والمجتمعات والأفراد المكونة له.**الثانية**:وجود قيم ومعايير عالمية تجمع النوع البشري رغم نسبيتها واختلافها من ثقافة إلى أخرى ومن شعب إلى آخر.[18]والذين يدافعون عن حقوق الإنسان العالمية يتبنون قناعات القرن الثامن عشر أو بالأحرى قناعات فلاسفة التنوير وهؤلاء، كما وضّحنا سابقا، يؤمنون بوحدة الجنس البشري وبوجود قيم عالمية وكونية متعالية عن الأوضاع التاريخية التي يكون فيها الأفراد والشعوب. أما فلاسفة القرن التاسع عشر فلديهم نظرة مغايرة لهم، فإذا كان فلاسفة التنوير يؤكدون على ما يجمع البشر فإن الرومانسيين الألمان يؤكدون على ما يجعلهم مختلفين مثل العادات والتقاليد والمعتقدات واللغات وما ينجر عنها من اختلاف في القيم والمعايير،ويرون أن احترام الإنسان لن يكون إلا باحترام ثقافته.

وبهذا ورثت الفلسفة بعد النصف الثاني من القرن العشرين نظرتين مختلفتين إلى الإنسان وإلى قيمه ومعاييره.**الأولى**:يمثلها فلاسفة التنوير و**الأخرى** يمثلها:رواد الرومانسية الألمانية ولكل نظرة مبرراتها و ودوافعها.ورأت هذه الفلسفة المابعد حداثية أن الحكمة هو التوفيق بينها، بين القيم العالمية والقيم

[17] - Charles Larmore, *modernité et morale*, op. Cit.., p. 233.
[18] - Sélim Abou, *Cultures et les droits de l'homme*, Paris, Librairie L'Harmattan, 1992, P. 11.

النسبية وذلك من خلال الإقرار بوحدة الجنس البشري وبوحدة قيمه مع الاعتراف كذلك بحق الاختلاف الثقافي والأمي ونسبية القيم.[19]

لكن المشكل الذي ينجر عن الاعتراف بحق الاختلاف الثقافي هو الإقرار بالمساواة بين الثقافات والإقرار بحقها في الدفاع عن عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها وقيمها. بل أصبح هذا الاختلاف الثقافي حقا من حقوق الإنسان الذي ينبغي أن تكفله الهيئات الدولية.ويعتقد فينكلكروت أن هذا التصور بالتحديد هو الذي جعل النزعات القومية و الوطنية والعرقية والدّينية تنفجر في أوروبا وغير أوروبا.[20]ومما زاد من الأمر تعقيدا هي ظاهرة الهجرة واحتكاك الجماعات المهاجرة مع ثقافات أخرى مختلفة فأضحى الرهان اليوم يتمثل في كيفية تحقيق تعايش بين هذه الثقافات والنزعات.

إن الميزة الأساسية التي طبعت الفكر المابعد حداثي هو دفاعه عن حق الاختلاف الثقافي للشعوب والأمم وهذا الفكر أسس،كما ذهب إلى ذلك فينكلكروت،لفردانية لا متناهية تهدد البناء القاعدي لحقوق الإنسان السياسية والأخلاقية وتهدد معها الهوية العميقة التي تجمع البشر.ويبدو أن الأمر الذي يزعج فينكلكروت في الفكر المابعد حداثي هو نزوعه الكبير إلى الاعتراف بحق الاختلاف الثقافي واعتباره حق من حقوق الإنسان الذي ينبغي أن يكفل.والاعتراف بحق الاختلاف الثقافي يعني الاعتراف أن حقوق الإنسان مختلفة باختلاف الشعوب والأمم.

والمشكل هو أن دول العالم الثالث تعتبر فكرة حقوق الإنسان على أنها ذريعة لاستغلالها واستعمارها والتدخل في شؤونها إلا أن فينكلكروت يعتبرها مسألة ضرورية لحماية الآخرين وليست أبدا امبريالية ثقافية بل هي مقاومة نبيلة دون الحيلولة لإخفاق الفكر.(أكيد أنه لا ينفي أن حقوق الإنسان أحيانا تستعمل كأداة للاحتلال والتدخل السياسي مثل حال العراق بل يتكلم عن الدول التي

---

[19]- Ibid., p . 13.
[20]- Charles *Larmore, modernité et morale*, op. Cit.., p. 233.

يعتبرها حقيقة تنتهك حقوق الإنسان) والنتيجة التي خلص إليها فينكلكروت هي أن الفكر المابعد حداثي واقع في أزمة كبيرة متمثلة في غياب قيم و معايير عالمية وبروز فردانية لا متناهية.

والسؤال الذي ينبغي طرحه الآن هو التالي:هل نعتبر هذا الهجوم على مفهوم الثقافة وحق الاختلاف الثقافي الذي يدافع عنه الفكر المابعد حداثي من قبل فينكلكروت يكشف عن حقده للثقافات الأخرى أم يُعبر عن قلق مفكر يؤرقه مصير الإنسانية ككل؟هل هو ضد حق الاختلاف الثقافي أم ضد ما يقبع وراء هذا الاختلاف؟.

يبدو أن المشكل ليس في الاختلاف الثقافي في حد ذاته أو في نسبية القيم بل في ما يقبع وراء استعمالات هذا الاختلاف. فما من شك أن بعض مظاهر الثقافات المختلفة سواء في الأكل أو الشرب أو اللباس أو بعض المعتقدات الدينية مثل الاحتفال بالمولد المسيحي أو النبوي أو ما شابهها من سلوكات أخرى سلمية ومسالمة لا تثير أي حرج بل بالعكس تُعبر عن ثراء يزخر به التراث الإنساني. إلا أن الأمر لن يكون عاديا عند فينكلكروت حين يتعلق الأمر ببعض السلوكات الأخرى عند بعض الثقافات وبالخصوص الإسلامية منها.حيث نجد أنه يبدي انزعاجا كبيرا حين يتعلق الأمر ببعض المعتقدات والسلوكات عند المسلمين مثل أن تكون شهادة رجل تعادل شهادة امرأتين أو السماح بتعدد الزوجات أو فرض لباس معين على المرأة أو رجم أو جلد الذي يمارس الجنس أو أن حق رجل في الميراث يعادل حق امرأتين أو أن السارق تقطع يده أوأن المرتد يقتل...أو بعض مظاهر الاستعباد التي نجدها في الثقافات الأخرى. ففينكلكروت يرى أنه لا يمكن لمثقفي العالم أن يغمضوا أعينهم وسلوكات كهذه تحدث في الثقافات الأخرى.ويرى أنه لا ينبغي التسامح مع هكذا تصرفات لأنه لا يمكن تبرير ذلك لا من الناحية العقلية ولا من الناحية الأخلاقية،بل لا يمكن التسامح مع هذا الوضع أبدا لأنه يعتبر أن التسامح والسكوت عن ذلك باسم حق الاختلاف الثقافي يعتبر مشاركة ضمنية في

الجريمة.[21] ففينكلكروت يرى أن الاعتراف بحق الاختلاف الثقافي يعني إعطاء الشرعية لمثل هكذا تصرفات لهذا فهو ينتقد الفكر المابعد حداثي الذي عوض أن يدافع عن ما يجمع البشر ويوحدهم ويضمن حقوقهم الإنسانية فإذا به يدافع عن ما يفرقهم و يشتتهم ويبرر انتهاك حقوقهم الطبيعية.

قد يقول القارئ أن هذه الأمثلة التي ذكرناها هي متعلقة بالثقافة الإسلامية وإذا كان فينكلكروت ضد مثل هكذا سلوكات فكان الأجدر أن نقول أنه ضد الثقافة الإسلامية وليس ضد الثقافات الأخرى التي ربما، يقول قائل،أنه يختبئ ورائها فقط من أجل ضرب الإسلام والإساءة إليه نقول:لقد تعمدنا ذكر هذه الأمثلة بالتحديد و المتعلقة بالثقافة الإسلامية من أجل الإشارة إلى قضية مهمة تتعلق بموقف فينكلكروت من الإسلام.فكثيرا ما يتهم البعض هذا الفيلسوف بأنه عدو للإسلام وبأنه لا يتوانى في كتاباته ومقالاته وحتى في حصصه التلفزيونية في الكشف عن عدائه للإسلام وللمسلمين.والمتتبع لكتابات وتصريحات هذا الفيلسوف يكتشف أنه حقيقة لا يجد حرجا في التعبير عن انزعاجه وأحيانا غضبه من الثقافة الإسلامية بل أكثر من ذلك يحذّر الغرب من الخطر الذي يمكن أن تلحقه هذه الديانة الآخذة في الانتشار على أوروبا وعلى العالم الغربي عموما.ولن نبسط الكلام حول هذه المسألة المتعلقة بعلاقة فينكلكروت بالإسلام الآن بل نؤجلها إلى حين عرض الحل الذي يقدمه فينكلكروت للخروج من هذه الأزمة.

والحل الذي يقترحه فينكلكروت من أجل الخروج من هذه الأزمة التي تعاني منها الثقافة ويعاني منها الفكر **المعاصر** والذي هو أصلا لم ينتبه بعد أنه واقع فيها يكون عن طريق إعادة تفعيل **العقل المتعالي**، أي العقل الذي يتعالى عن التاريخ من أجل إنقاذ الحياة الليبرالية والديمقراطية التي تؤمن بالقيم والمعايير العالمية. ففينكلكروت يرى انه من الضروري جدا أن نتبع فلاسفة التنوير في دعوتهم إلى فصل العقل عن التاريخ، وذلك بجعل مسافة بينه وبين أنماط العيش والقيم

[21]- Rolond Quilliot, *culture et relativisme*, Hermes.20, 1996.P. 244.

والتفكير المحلية من أجل بلوغ العالمية. فالعقل المتعالي يؤمن بأن هناك أفقا يشترك فيه جميع البشر وهو الذي يشكل ماهيتهم و يجعلهم موحدين، وهذا العقل بالتحديد هو الذي يعطي الشرعية لتأسيس القيم السياسية والأخلاقية العالمية. وبالمقابل يدعو فينكلكروت الفكر المعاصر إلى التخلي عن أفكار هردر التي تمجد العقل التاريخي وبالخصوص تلك التي مفادها أن العقل ليس ماهية مسبقة أو معطى مسبق بل هو شيء يتشكل وفقا للسياق التاريخي الذي وجد فيه ما يعني أن الأفراد، حسب هردر، يكتسبون ماهيتهم من المجتمع الذي ولدوا فيه وفي الثقافة التي نشئوا فيها. وكأن فينكلكروت بدعوته إلى التشبث بأفكار فلاسفة التنوير والتخلي عن أفكار هردر هي دعوة للأفراد والشعوب إلى التعامل فيما بينهم انطلاقا من الهوية العميقة التي تجمعهم وليس انطلاقا من الهوية المكتسبة الموروثة من أنماط العيش والتفكير المحلية والتي تعمل على تفريقهم.

ويعول فينكلكروت من أجل تجاوز أنماط العيش والتفكير المحلية للأفراد على مؤسسة قاعدية ومهمة في تكوين الثقافة ألا وهي **المدرسة**. ولما كانت المدرسة أداة لنقل الثقافة فإنه ينبغي الاهتمام بالثقافة التي يجب نقلها.لأن الإنسان عند فينكلكروت لا يملك أي انتماء آخر غير الإنسانية والمدرسة بالمقابل ليس لها مهمة أخرى غير تكوين هذه الإنسانية الموجودة في الأفراد دون الاهتمام بانتماءاتهم الثقافية أو العرقية أو العقائدية وذلك عن طريق تجاوز اختلافات الثقافية والعرقية والعقدية... والتعالي عليها من أجل ما يوحدهم.[22]

لكن المشكل الذي ينبغي طرحه هنا هو:هل البشر مستعدين أن يتخلوْ عن أنماط عيشهم وتفكيرهم المحلية وأن يتجردوا من ثقافاتهم ومن معتقداتهم التي نشأوا فيها؟ هذا من جهة،ومن جهة أخرى إذا سلمنا بفكرة تعالي العقل عن السياق التاريخي الذي وجد فيه فإننا بذلك سنفقد الوسيلة التي من خلالها نستطيع تبرير الوقائع والأحداث هذا لأن منطق تشكلها مرتبط بالسياق التاريخي

[22]- *Denis Simard, Stéphane Martineau,«Quelle culture à l'école: Goethe ou Herder?»*Pédagogie collégiale Vol.12 no4Mai1999, P8.10.

الذي وجدت وتكونت فيه وإذا حاولنا فهمها خارج سياقها التاريخي والثقافي فإننا لا محالة سنسيء فهمها.[23] فالأحكام التي يصدرها العقل المتعالي هي أحكام عامة ومجرة تستمد شرعيتها من الهوية العميقة للبشر ولا يأبه بالخصائص التي تميز الشعوب والثقافات بل أصلا لا يهتم بأسباب تشكلها فأحكامه تكون من الخارج وليس من الداخل وهذا النقد بالتحديد هو نفسه الذي وجهه هردر لفلاسفة التنوير حين أرادوا فهم المراحل التاريخية السابقة وفقا لمعايير عصرهم متجاهلين المسافة الزمنية والبنية الفكرية التي تفصلهم عنها. فالخطأ الذي وقع فيه فينكلكروت هو نفسه الخطأ الذي وقع فيه فلاسفة التنوير، وكأن الصراع الفكري الذي دار بين هردر وفلاسفة التنوير يتكرر في الفكر المعاصر بين فينكلكروت وفلاسفة ما بعد الحداثة.

ويبدو أن فينكلكروت ما يزال مصرا على التشبث بموقف قد تم تحطيمه من قبل من طرف هردر فحسبنا أن فينكلكروت وقع في خطأين :**الأول**: إصراره على الدفاع والتشبث بموقف فلاسفة التنوير دون أن يدّعم موقفهم أو على الأقل يعدله بحيث يكون أكثر ليونة وتماشيا مع العصر.أما الخطأ **الثاني**: فيكمن في إعراضه عن الحق بعد أن تراءى له،بمعنى أن تكبره و تعصبه لموقف فلاسفة التنوير منعاه من أن يفهم موقف هردر ويفهم رسالته النبيلة الداعية إلى احترام الاختلاف الثقافي.فهردر لم يدعو إلى الاختلاف الثقافي الذي يرفض أو يبعد العالمية أو يلغي إمكانية تأسيس قيم ومعايير عالمية كما يعتقد فينكلكروت بل نجده قد طور في كتابه الضخم:**أفكار حول فلسفة التاريخ الإنسانية**.فكرة مفادها أن البشر على الرغم من اختلافهم فإنهم يشتركون في أفق واحد هي الإنسانية. وهذه الوحدة التي دعا إليها هردر ليست وحدة اسمية مجردة كما نجدها عند فلاسفة التنوير بل هي وحدة محسوسة عينية تعترف بخصوصيات الشعوب والأمم،عالمية متفهمة وتحترم حق الاختلاف الثقافي.

[23]- Charles Larmore, *modernité et morale*, op. Cit.., p. 238.

وكإجابة للسؤال الذي طرحناه سابقا حول سبب عداء فينكلكروت للاختلاف الثقافي هل ذلك يعبر عن قلق مفكر يؤرقه مصير الإنسانية؟ أم تعبير عن مزاج نفسي وتعصب فكري يجعله لا يطيق الثقافات الأخرى؟ نقول للذي يدافع عن الإنسانية ويؤرقه مصير النوع البشري أن الإنسانية ليست وعاءا فارغا وليست اسما مجردا لا يشير إلى أي شيء في الواقع بل الإنسانية هي مجموع الأفراد والشعوب والأمم والثقافات المختلفة والذي يدعي أنه يهتم بمصير الإنسانية ينبغي أن يهتم أولا بمصير هذه الكيانات التي تكونها، والذي يدعي أيضا احترام الإنسانية ينبغي أولا أن يُبديَ احتراما لمكوناتها.ففينكلكروت حين يدافع عن الإنسانية دون أن يبدي احتراما لمكوناتها أي دون الاعتراف بحق الاختلاف الثقافي فإنه بطريقته تلك كمن يدافع عن شيء فارغ من المحتوى أو عن اسم مجرد لا يملك دالاً في الواقع. وعندما نقول هذا الكلام فهذا لا يعني أننا نريد أن نقول أن فينكلكروت عنصري وأنه يكن حقدا وكراهية للثقافات الأخرى.بل نحترم موقفه ونعترف به فإن كنا ضده ونتهمه بالإسلاموفوبيا فإننا بذلك سنقع في شراك ما ننتقده عليه فالذي يدعوا إلى الاحترام الثقافي ينبغي عليه هو أيضا أن يقبل اختلاف الآراء ومن بينها موقف فينكلكروت وإلا فإن الدعوة إلى احترام الاختلاف الثقافي تبقى مجرد شعار لا يختلف عن الشعار الذي يرفعه فينكلكروت حول حقوق الإنسان.

إن فينكلكروت لم يخطأ حينما قال أن بعض الثقافات لا تحترم حقوق الإنسان وبالخصوص في أغلب الدول العربية والإسلامية وهو في ذلك لم يقدم جديدا فأهل الديار أدرى بشعابها. ويبدوا أن المصدر الحقيقي لانزعاج فينكلكروت من الثقافة العربية والإسلامية هو تزايد أعداد المهاجرين الذين ينتمون إلى هذه الثقافة إلى بلده فرنسا والقارة الأوروبية عموما. فلم تعد فرنسا تلك التي أرادها فلاسفة التنوير تتكلم لغة واحدة، ولها نمط عيش واحد ونمط تفكير موحد، أما الآن فأصبحت فرنسا متعددة اللغات والألوان وأنماط العيش والتفكير وبل حتى متعددة الأديان، فرنسا التي حاربت الدين وعزلته عن المؤسسات العمومية وجعلته مسألة فردية أصبحت اليوم تبنى فيها صوامع وكنائس، وليس هذا

مقتصرا على فرنسا فقط بل أوروبا بأكلها. وحين ينظر إلى الوضع الذي آلت إليه أوروبا التي أصبحت متعددة الثقافات فإنه يتهم الفكر المعاصر الذي يرى أنه قد خان رسالة التنوير وبل يعتبر ذلك هزيمة للفكر لأنه لم يعد يحارب الدّين ولم يعد يناضل من أن أجل أن تسود في العالم القيم والمعايير العقلية، فأوروبا اليوم لم تعد أوروبا الأنوار بل أصبحت أوروبا الهردرية (نسبة إلى هردر) وهذا التحول الذي طرأ على هذه القارة هو ما يسميه فينكلكروت في أحد عناوين كتبه:**إخفاق(هزيمة)الفكر**.

إن الذي يؤرق فينكلكروت هو هذه الثقافات الوافدة إلى أوروبا والآخذة في الانتشار.ويبدو أن الثقافات التي تثير انزعاجه أكثر من غيرها هي الثقافة العربية والإسلامية. وينبغي أن لا نلومه في ذلك لأن هذه الثقافة بها حقيقة ما يجعل الإنسان ينزعج ويقلق و أحيانا أخرى يشعر الخوف. فحين نقول أن المرتد عن دين الإسلام يقتل وأن الكفار يجب محاربتهم أو طلب الجزية منهم وأنه لا حكم إلا لله وأن الزاني يرجم أو يجلد وأن المرأة مهما بلغت من العلم و الجاه فإنه الرجل قوام عليها... فإن هذه الأمور وغيرها تبدو للثقافة الأوروبية غير مقبولة وغير منطقية وأكثر من ذلك لا إنسانية وليس فقط للثقافة الغربية فحسب بل حتى من بعض المسلمين أيضا من نجدهم يتبرؤون من مثل هكذا سلوكات. لكن ما لا يمكن أن نقبله من فينكلكروت هو حكمه على الثقافات الأخرى انطلاقا من ثقافته هو وهذا حتما سيحول دون الفهم الجيد لنمط عيش وتفكير الثقافات الأخرى. وهذا الكلام يصدق على الثقافة العربية والإسلامية فحين يُنصب فينكلكروت نفسه للدفاع عن المرأة المسلمة ويقول بأنها مقهورة فهو لا يعلم أن هذه المرأة سعيدة بوضعها وراضية بحالها وبطريقة عيشها. وما منعه من فهم ما تشعر به المرأة المسلمة هي أحكامه التي انطلاقا من ثقافته التي صورت له كيف ينبغي أن يكون عليه وضع المرأة. فحتى يفهم المرأة المسلمة عليه أن يفهمها انطلاقا من ثقافتها أما أن يحكم عليها من خارج ثقافتها فهذا سيبعده عن الفهم الحقيقي لكينونتها وأكثر من ذلك سيسيء إليها.

ويبدو أن فينكلكروت لا تروقه فكرة هردر التي ترى أن الفهم الحقيقي للأفراد وللشعوب لن يكون إلا بفهم الثقافات التي ينتمون إليها وذلك عن طريق التعاطف والعيش معها وفهم معتقداتها وعاداتها وتقاليدها ونمط تفكيرها وثمة فقط نستطيع فهمها،أما أن نحكم على الآخرين من الخارج بأن نطلق أحكاما تكون نابعة من ثقافات أخرى أو أن نحكم على ثقافة ما انطلاقا من ثقافة أخرى فإن ذلك يشوهها ويسيء إليها[24]،قلنا بأن هذه الفكرة لا تروقه ويرى أن أسوأ الأحكام المسبقة هو هذا الحكم الذي أصدره هردر نفسه ففينكلكروت يرى الامتناع عن إصدار الأحكام يعني الامتناع عن التفكير والامتناع عن التفكير يؤدي إلى انهزام الفكر ومنه انهزام الإنسان.[25]

نقول لفينكلكروت أن محاولة تغيير بعض مظاهر الثقافات التي تتعارض مع حقوق الإنسان الطبيعية لا ينبغي أن يكون من الخارج بل التغيير يكون من الداخل من داخل هذه الثقافات ذاتها. وهذا يصدق على الثقافة الإسلامية فإذا كانت بها مظاهر يراها متعارضة مع الطبيعة البشرية فإن محاولة تعديلها لن تكون أبدا من الخارج وإلا ستصبح امبريالية ثقافية وستلقى بالمقابل مقاومة شرسة ضدها. إن التغيير في الثقافة الإسلامية، في اعتقادنا، لن يكون إلا بتغيير الفهم المقدم لنصوصها المقدسة عن طريق استخدام ما يوفره العصر من آليات منهجية ومعرفية جديدة.فكل ما يراه فينكلكروت على أنه يتعارض مع حقوق الإنسان ومع الطبيعة البشرية موجود في هذه النصوص المقدسة وعدم احترام هذه المظاهر الإسلامية يعني بالضرورة عدم احترام نصوصهم المقدسة.كما أن تغيير العادات والتقاليد والمعتقدات والذهنيات لا يكون بين عشية وضحاها كما هو شأن اللباس الذي نرتديه. فتغييرها يتطلب مسيرة أجيالا أجيال.كما أن الدين الإسلامي إذا كان حقيقة دين الإنسانية جميعا عليه أن يحترم كل الثقافات وأن يحتضنها جميعا لأن الإنسانية مختلفة ثقافاتها ولغاتها ومعتقداتها وعاداتها وتقليدها وأنماط

[24]- Herder, J. G., *une autre philosophie de l'histoire*, Op. Cit., P . 161.

[25]- Marc Chabot, « *Alain Finkielkraut : penser n'est pas un luxe »,* Nuit blanche, magazine littéraire, n°29, 1987, p. 70-71. P. 71.

عيشها وتفكيرها. وأن لا يقصي أي ثقافة من الثقافات وإلا فلن يكون دينا للإنسانية.وحتى يكون دينا للإنسانية عليه أن يبدي ليونة في معتقداته تجاه الثقافات الأخرى.وينبغي للإسلام، طبعا إذا أردنا أن تكون رسالته عالمية،أن يكون كالأم التي تحتض بحب وحنان جميع أبنائها، ذكورا وإناثا كبارا وصغارا.إن دين الإنسانية ينبغي أن يعترف بحق الاختلاف الثقافي... والوعاء الذي يحمله المسلمون اليوم قاصر على أن يحتوي كل مكونات الإنسانية....

قائمة المراجع:

1-Alain Finkielkraut, la défaite de la pensée, Gallimard, 1987.

2-Charles Larmore, *modernité et morale*, presses universitaires de France, 1993

3-Herder, J. G., *une autre philosophie de l'histoire*, Trad. De l'allemand par : Max Rouché, Paris, Aubier. Rolond Quilliot, *culture et relativisme*, Hermes.20, 1996.

4- Sélim Abou, *Cultures et les droits de l'homme*, Paris, Librairie L'Harmattan, 1992.

Revues.

1-Denis Simard, Stéphane Martineau, *« Quelle culture à l'école Goethe ou Herder ? »*Pédagogie collégiale Vol. 12 no 4 ai 1999.

2-Marc Chabot, « *Alain Finkielkraut : penser n'est pas un luxe »,* Nuit blanche, magazine littéraire, n°29, 1987.

3-Vincot Citot, « *le processus de la modernité et la possibilité de liberté »*, le philosophoire, 2005, N°.25, PP. 35.76.

4-Entretien avec Finkielkraut, *On lit pour avoir un cœur intelligent* Propos recueillis par François.

المذكرات:

كرام ياسين، فلسفة التاريخ عند هردر: نحو نقد العقلانية التنويرية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، إشراف الدكتور: وارث أحمد، جامعة الجزائر 2، 2015.2014.